الجذور الاجتماعية لحركة الشعر الحر

بقلم نازك الملائكة

لعل القانون الذي يتحكم في حركات التجديد عامة هو انها كلها محاولات لاحداث توازن جديد في موقف الفرد والامة بعد ان اعترت الموقف عوامل خارجية فرضت عليه ان تتخلخل بعض جهاته وتميل . وسرعان ما يصبح التجديد حاجة ملزمة تفرض نفسها فرضا فلا تملك الامة الا ان تلبي طائعة وتستسلم لهذا الزائر الذي يطرق الباب ملحا . ولقد الفت المجتمعات الانسانية عبر التاريخ ، ان تقابل التجديد في كثير من الريبة والتحفظ فلا تتقبله الا بعد رفض طويل ومقاومة تبدو فيها الجماعات وكأن حافزا اقوى منها يدفعها الى ان تحمي نفسها من هذا الطارق المريب . وقد الفنا ايضا ان نرى المجددين يسخطون على هذا التردد الذي يقابل به تجديدهم ويرمون الجماهير بالجمود والبلادة وقلة القدرة على تقدير الابداع .. على ان النظرة الاجتماعية المتأملة لا بد ان تجعلنا اقل لوما للجمهور ، فما هذا التحفظ في الواقع الا صوت التماسك والاصالة في شخصية الامة التي ترفض ان تنهار بازاء كل فكرة جديدة تعرض والا لم تعد امة ولم يعد في امكانها ان تحفظ تراثها . ان التحفظ ، بالمعنى البايولوجي ، ضرب من الدفاع عن النفس يواجه به الفرد الانساني عوامل العدوان ومخاطر المفاجأة التي تعترضه . وذلك لان تقبلنا لاي رأي طاريء نصادفه يعني في حقيقة الامر ان نتهدم تهدما كاملا ثم نعيد بناء انفسنا بحيث تلتئم هذه المادة الغريبة مع المواد المسابقة التي اخترناها في اذهاننا ولذلك وحسب لا نستطيع ان نتكرم بقبول كل رأي يعرض علينا وانما لا بدلنا أن نتريث ونقاوم . ان طبيعتنا البايولوجية تفرض علينا هذا التحفظ بازاء الافكار ، كما تفرض علينا قواعد الصحة ان نتحفظ بازاء الحالات المفاجئة من الحرارة والبرودة والضغط ، والتحفظ في الحالتين يتضمن المحاولة الدائبة لاعداد الفكر والجسم اعدادا متدرجا لقبول الحالة الجديدة دونما تمزق او اذى . والحق ان كل راي جديد يعرض للامة يتضمن هزة كاملة لكيانها العقلي والنفسي ، فلا تستطيع أن تقبله فورا وانما لا بدلها ان تعدل في مضموناتها السابقة وتعيد تنظيمها حتى تلتئم مع الحالة الجديدة المقترحة .

لقد كانت هذه الحالة من الانكماش والرفض رد الفعل الاول الذي لقيته حركة الشعر الحر حين انبثقت أول مرة في العراق عام ١٩٤٩ . فقد قابلها الادباء والجمهور مقابلة غير مرحبة ورفضوا ان يتقبلوها وعدوها بدعة سيئة النية غرضها هدم الشعر العربي . وانما كانت فكرة اقامة القصيدة العربية على « التفعيلة » بدلا من « الشطر » صادمة للجمهور لانها سألته ان يحدث تغييرا اساسيا في مفهومه عن الشعر ، وقد كان لا بد للجمهور العربي ، وهو يحمل ثقافة غنية عريقة ، ان يتماسك في وجه هذا الطلب المفاجيء ، ويرفضه ريثما يدرسه ويفسح له مكانا .

لقد الف هذا الجمهور ان يرص له شعراؤه القدماء ثلاث تفعيلات او اربعا في وحدة ثابتة اعتاد أن يسميها «الشطر» فاذا هو يفتح عينيه فجأة ذات صباح فيرى امامه قصائد اشطرها لا تتقيد بعدد معين من التفعيلات فقد يرد شطر ذو تفعيلتين يليه آخر ذو اربع وثالث ذو تفعيلة واحدة . اعتاد الجمهور ان يكون البيت ذو الشطرين وحدة في القصيدة فاذا هو اليوم يقرأ شعرا حطم فيه استقلال البيت تحطيما متعمدا قضى على عزلته وادمجه في الابيات الاخرى .

كان العروضيون يتحدثون مثلا عن وزنين متميزين اسمهما « الكامل » و « مجزوء الكامل » فاذا الشاعر الحديث يدمج الوزنين حين يريد ويعدهما وزنا واحدا لان تفعيلتهما واحدة .

والواقع ان ملخص ما فعلته حركة الشعر الحر انها نظرت متأملة في علم العروض القديم واستعانت ببعض تفاصيله على احداث تجديد يساعد الشاعر المعاصر على حرية التعبير واطالة العبارة وتقصيرها . ولم تصدر الحركة عن اهمال للعروض كما يزعم الذين لا معرفة لهم به وانما صدرت عن عناية بالغة به جعلت الشاعر الحديث يلتفت الى خاصية رائعة في ستة من بحور الشعر العربي تجعلها قابلة لان ينبثق عنها اسلوب جديد في الوزن يقوم على القديم ويضيف اليه جديدا من صنع العصر .

وما كاد الجمهور العربي يتسامع بالدعوة حتى أسرع الى رفضها واساء الظن بها واتهمها . وكانت احب التهم الى قلوب المعارضين ان الشعراء الشباب قد احدثوا طريقة يتخلصون بها من صعوبة الاوزان العربية القائمة وتعينهم على تغطية كسلهم وضحالة مواهبهم الشعرية . قالوا ان الحرية من القيود العروضية استسلام الى السهولة والرخاوة ولجوء الى الترف ، وان هذا الشعر الحر قضية هينة يسيرة يستطيعها حتى من لم يكن شاعرا . والواقع انه ليس من الثابت فلسفيا ان الحرية اسهل من اتباع القيود . ولعل الامر ان يكون على العكس . وذلك لان كل حرية ، على الاطلاق ، تتضمن مسؤولية . لقد كانت الانسانية ، في كل زمان ومكان ، حريصة على قيودها فبقيت تجرها وتتمسك بها مع انها تحز عنقها وذراعيها ، لا لشيء الا لان هذه القيود تحمي من متاعب الحرية ومسؤولياتها ومآزقها ، وما القيود ،

اذا تأملنا ، الا طرق ممهدة مرصوفة تعطي الانسانية الامان والشعور بالاستقرار . انها اشبه بسياج عال يحمي المحبوسين فيه من احتمالات الضلال . والذهن الكسول يجد في القيود راحة لانها تقيه مشقة الاختيار ومخاوف الاستقلال . وعلى هذا الاساس وضعت المجتمعات القوانين الصارمة والنظم ورصفت الخطط المفصلة لكل مسلك انساني . ان الحرية خطرة لانها تتضمن مغامرة فردية يجازف فيها المرء براحته وكيانه ولن يقوى على مخاوفها الا من كان شديد الثقة بنفسه . واذا كان التقييد رصفا لطريق واضح لا تتيه فيه الخطى فان الحرية تترك الانسان وحيدا بازاء عشرات من الطرق عليه ان يختار منها ما يلائم رغباته وظروفه . وانه ليدري ان بعض هذه الطرق قد تورده موارد الدمار والهلاك . ولذلك يؤثر اغلبية البشر ان يقبلوا القيود ويعيشوا في ظلها آمنين . ولعلهم في صميم انفسهم ينظرون الى الحرية وكانها مقامرة غير مضمونة او معاهدة مع الشيطان . وهذا محزن للذهن المتأمل ، غير ان الانسانية كما قلنا تؤثر سعادتها وسلامتها على كل شيء آخر . ومعها الحق .

على اننا ، ونحن نفند مزاعم المعارضة ، غير مضطرين الى الاكتفاء بفكرة نظرية حول الحرية ، فان الشعر الحر الذي يملأ الكتب والصحف اليوم يمدنا هو نفسه بالدليل على ان الحرية أصعب من التقييد . فلو انشأنا دراسة مفصلة تقوم على الاحصاء ، وقارنا بين الاغلاط العروضية الواردة في الشعر المعاصر قبل الشعر الحر وبعده ، لدلت النتائج على أن من اسهل الامور ان يقع الشاعر الذي يستعمل الاسلوب الحر في اغلاط الوزن والزحاف الى درجة تحز القلب . وابرز دليل على ما نذهب اليه ان الشاعرين الكبيرين نزار قباني وفدوى طوقان يكتبان قصائد بالاوزان القديمة وقصائد حرة فلا تقع اغلاط الوزن الا في قصائدهما الحرة . وان الناقد العروضي ليبتسم عاذرا حين يرى هذه الظاهرة الطريفة ، فلن يرتاب احد بسمو شاعرية نزار وفدوى وقد اعترف لهما العصر بالابداع ورهافة السمع . ولكن الشعر الحر مملوء بالمزالق ، وهو ينصب شركا ، فاذا لم يكن الشاعر حذرا كان من السهل ان ينتقل فجأة من « الرجز » الى « السريع » او « المنسرح » لمجرد ان « مستفعلن » تتصدر البيت وتخدع النظر .

*

واما السؤال الاعظم الذي دارت حوله مناقشات المعترضين على البدعة ، فقد انصب على الاسباب الداعية التي دفعت هذه الفئة الضالة من الشباب الى ان يتبنوا حركة لقلب الاوزان العربية . وقد ذهبوا في التأويل مذاهب شتى فقال البعض أن الشباب مولع بالاغراب والشذوذ ، وقال اخرون بان الجيل الجديد كسول يضيق بالجهد ولا يصبر على متاعب الشطرين واهوال القافية الموحدة فتخلص الى السهولة ، ورات فئة ثالثة ان الحركة بمجملها منقولة عن الشعر الاوروبي ولا علاقة لها بالشعر العربي .

والحق ان هذه المزاعم لا تخلو من مثل ذلك الصدق العفوي الذي نجده مصاحبا حتى لاكثر الاحكام بعدا عن رصانة التأمل ووضوح القصد . ولعل السذاجة في الحياة الانسانية الا تخلو من الحكمة خلوا تاما مهما بلغت درجتها . غير ان في امثال هذه الاحكام المتسرعة ، على كل حال ، تغاضيا لا يسكت عنه عن بعض الحقائق الاولية المتعلقة بالمجتمعات ونموها وتطورها . افتراه من الممكن ان تنشأ حركة في مجتمع ما ويستجيب لها جيل من الناس على مدى عشر سنين بطيئة طويلة دون ان تمتلك جذورا اجتماعية تحتم انبثاقها وتستدعيه ؟ امن الجائز ان تنبعث هذه الحركة من اعماق الفراغ والسكون دونما جذور ولا روابط ولا مسببات ؟ وما الذي يجعل حركة ما تظهر في عصر معين دون عصر ؟

في الواقع ان الافراد الذين يبدأون حركات التجديد في الامة ويخلقون الانماط الجديدة ، انما يفعلون ذلك تلبية لحاجة روحية تبهظ كيانهم وتناديهم الى سد الفراغ الذي يحسونه . ولا ينشأ هذا الفراغ الا من وقوع تصدع خطير في بعض جهات المجال الذي تعيش فيه الامة . ويغلب ان يكون الفرد المبدع غير واع وعيا حقا لهذا التصدع ، غير انه مع ذلك يندفع الى التجديد الذي يعوض عما تصدع ، وهو في هذا مقود بمحتمات بيئية قاهرة لا قدرة له على مقاومتها . انه ليشعر بضغط داخلي مستبد يدفعه دفعا الى احداث هذا الجديد . ولعله في اندفاعه الى الابداع ينساق بعين الدافع القسري الذي يجعل ماء ذا مستوى عال يندفع الى اول بقعة منخفضة يصادفها فلا يكف حتى يملأها . ان تشبيهنا هذا ليس رديئا فلعل علم الاجتماع ان يقرنا على هذا الاعتراف بسطوة التيارات الاجتماعية على الذهن الانساني . هذا بالاضافة الى ان ما يسمونه بدعوة « الفن للحياة » تستريح الى مثل هذه الفكرة التي تجعل المجتمع هو الجذر الاساسي لكل حركة ادبية .

ولعل الدليل على ان حركة « الشعر الحر » كانت مقودة بضرورة اجتماعية محضة هو ان محاولات وادها قد فشلت جميعا ، فما زال تيار الشعر الحر يشتد ويتلاطم حتى اضطر مؤتمر الادباء العرب الثالث في القاهرة الى ان يعترف به رسميا ويدخله في ابحاثه الرئيسية . وهل في وسع المهاجمات مهما قويت واصرت ان تقتلع حركة انبعثت من صميم الظروف الاجتماعية للفرد العربي ؟ ان حركة ما ليست عرضا خارجا يسهل نزعه بمقال او مقالات ، بمقاطعة او استنكار . وهذا لانها كما قلنا اندفاع محتوم لملء فراغ واقامة تصدع . والحق ان في امكاننا ان نعد حركة الشعر الحر حصيلة اجتماعية محضة تحاول بها الامة العربية ان تعيد بناء ذهنها العريق المكتنز على اساس حديث ، شأنها في هذا شأن سائر الحركات المجددة التي تنبعث في حياتنا اليوم في مختلف المجالات .

ان العوامل الاجتماعية الموجبة التي جعلت الشعر الحر ينبثق كثيرة ، ولكننا سنحصي منها في بحثنا هذا اربعة عوامل ، وكلها كما سنرى تتعلق بالاتجاهات الاجتماعية العامة

للفرد العربي المعاصر وترتكز الى تفاصيل الشعر القديم وخصائص الشعر الحر نفسه .

واول هذه العوامل نزوع الفرد العربي المعاصر الى الهرب من الاجواء الرومانتيكية الى جو من الحقيقة الواقعية الصارمة التي تتخذ العمل والجد غايتها العليا . وقد تلفت الشاعر الى الاوزان الشطرية القديمة فوجدها تتعارض مع هذه الرغبة عنده لانها من جهة مقيدة بطول محدود للشطر وبقافية موحدة لا يصح الخروج عنها ، ولانها من جهة اخرى حافلة بالغنائية والتزويق والجمالية العالية .

اما القيود التي تضيق آفاق الاوزان القديمة فهي تلوح للفرد المعاصر ترفا وتبديدا للطاقة الفكرية في شكليات لا فائدة لها ، في وقت ينزع فيه هذا الفرد الى البناء والانشاء الى اعمال الذهن في موضوعات العصر . انه لا يريد ان يضيع جهوده في اقامة هياكل شعرية فارغة لها من الرصانة والهيبة اكثر مما يطيق . ولعل الرصانة الشديدة ان تكون منفرة للذهن العامل الذي يرمي الى ان يبني ويخلق وذلك لانها ليست اكثر من تقييد للحركة والانتاج . والشاعر المعاصر يريد ان يتحرك ويندفع . ان مشاكل العصر تناديه وهو لا يجد وقتا كثيرا لترف القيود وبطر القافية الموحدة . وفروض العمل والحياة المنتجة تتطلب ان يخلق لنفسه اسلوبا اكثر حرية واقل هيبة وجلالا . وهو في هذا اشبه بانسان يشتغل فلاحا ويضايقه ان يلبس ثيابا انيقة مترفة لانه يحتاج الى لباس بسيط يعطيه الحرية على الحركة والقدرة على العمل . ولذلك انطلق الشاعر الحديث وخلق اسلوب الشعر الحر ببساطة اسلوبه وخلوه من الرصانة .

اما الغنائية فهي تنشأ عن الموسيقية العالية في الاوزان القديمة وتعطيها جوا من العاطفة المصطنعة والخيال . والغنائية ملازمة للتقييد لانها تتضمن مبالغة واسرافا في العواطف . فما يكاد الشاعر يقع في مآزق القافية الموحدة ويتلكأ عند البيت الواحد حتى يعتريه احساس بانه لا يعبر ، وانما يكتب شيئا مترفا تتحكم فيه هذه الملكة الجميلة المستبدة التي تقف في اخر البيت وتصر على ان تكون ابرز ما فيه . ولعل هذا الاحساس بالترف والفراغ هو الذي يجعل الشعر القديم حافلا بالاجواء المثقلة بالعنبر ونسيم الصبا والثياب الحريرية تجرها فتيات ناعمات لا عمل لهن سوى الدلال ونوم الضحى . ان الشاعر المعاصر ـ وهو فرد في مجتمع يعمل ويبني ـ يضيق بهذا الجو الكسول النعسان ، وهذه الجمالية المفروضة فرضا ، انه يريد ان يكون شعره مفكرا ايجابيا طويل العبارة فلا تسمح له بذلك الغنائية العالية في الابحر الشطرية . وهو ينفر من هذه النبرة العاطفية الموسقة لانها لا تلائم نزوعه الى العمل والنشاط ، ومن ثم فهو يريد ان يحطمها ويخرج من قمقم الاحلام واوهام الف ليلة وليلة . لقد وجد في الشعر الحر مهربا من هذا الجو المثقل بالجواري والحرير ومصباح علاء الدين . وهو يطلب الواقعية حتى اذا كانت قاسية خشنة فيمد يديه ليلمس الحقيقة حتى ولو ادمتهما . واما لماذا يصلح الشعر الحر للتعبير عن حياة من الحقيقة ليس الجمال الحسي غايتها العليا فلأنه كما اشرنا يخلو من رصانة الاوزان القديمة ويجعل غايته التعبير لا الجمالية . وهكذا تستطيع النظرة الاجتماعية ان تتبين في حركة الشعر الحر جذور الرغبة في تحطيم الحلم والاطلال على الواقع العربي الجديد دونما ضباب ولا موسيقى ولا اوهام . اما ثاني العوامل الاجتماعية في انبثاق حركة الشعر الحر فهو ان الشاعر الحديث يحب ان يثبت فرديته باختطاط سبيل شعري جديد يصب فيه شخصيته الحديثة التي تتميز عن شخصية الشاعر القديم ، انه يرغب في ان يستقل ويبدع شيئا لنفسه يستوحيه من حاجات العصر . يريد ان يكف عن ان يكون تبعا لامريء القيس والمتنبي والمعري . وهو في هذا اشبه بصبي يتحرق الى ان يثبت استقلاله عن ابويه فيبدأ بمقاومتهما . ويعني هذا ان لحركة الشعر الحر جذورا نفسية وكأن العصر كله اشبه بغلام في السادسة عشرة يرغب في ان يعامل معاملة مستقلة فلا ينظر اليه وكانه طفل ابدا . ان حرقة الاستقلال هذه تساهم الى حد ما في دفع الشاعر الحديث الى البحث في اعماق نفسه عن مواهب كامنة غير مستغلة وعن قدرات وخصائص يمكن ان تشحذ وتبرز فتعطيه شخصية متفردة خاصة تميزه عن اسلافه من قدماء الشعراء . وقد وجد في الثورة على القوالب الشعرية متنفسا لهذه الحرقة الطبيعية الى الاستقلال والابداع فثار عليها وسلك سبيلا جديدة . ولا ريب في ان هذه النزعة هي التفسير الوحيد للتطرف الذي غرق فيه بعض شعرائنا المجددين الذين ظنوا ان الاوزان القديمة عاطلة من القيمة وراحوا يتقززون حتى من القواعد الشعرية الرصينة التي رسخت عبر مئات من سنوات الشعر واللغة . ولن يصعب على الناقد المتزن ان يغفر لهؤلاء المتطرفين نزق اشطرهم ورعونة قوافيهم ما دام يدرك الاساس النفسي للمبالغة التي سقطوا فيها .

وثالث العوامل التي حتمت انبعاث الشعر الحر في حياتنا يقوم على طبيعة الفكر المعاصر وهو فكر ينفر مما نختار ان نسميه بالنموذج في الفن والحياة . ونقصد بالنموذج اتخاذ شيء ما وحدة ثابتة وتكرارها بدلا من تغييرها وتنويعها . وتلاحظ فكرة النموذج في الفن العربي القديم ما نرى على جدران المساجد والقصور وقبب الجوامع ومنائرها حيث التزيين يقوم على اساس تكرار وحدة تجريدية ثابتة لا تتغير او مجموعة وحدات منضمة في وحدة اكبر ، على ان تراعى في التكرار النسب المضبوطة ضبطا دقيقا . ان الاساس الذي قام عليه هذا الفن العربي عين الاساس الذي قام عليه شعرنا القديم . فقد كان الشطر او البيت يتخذ وحدة ويحافظ الشاعر على عزلة هذه الوحدة مراعيا المسافات المضبوطة بينها وبين سائر الوحدات التي يكررها الى نهاية القصيدة .

وجاء الشاعر المعاصر باتجاهاته الحديثة ونظر في نظام الشطرين فوجده يبيح له شكلا مقيدا بنمط معين ذي طبيعة هندسية مضغوطة . أن الاشطر المتساوية والوحدات المعزولة لا بد ان تفرض على المادة المصبوبة فيها شكلا مماثلا يملك عين الانضغاط وتساوي المسافات . او لنقل ان هندسية

الشكل لا بد ان تتطلب هندسية مقابلة في الفكر الذي يستوعبه هذا الشكل ، وذلك بمعزل عن حاجة السياق . والقوالب تفرض شكلها على المادة التي تنضغط في داخلها . واذا كانت القصيدة الشطرية ملزمة بالمحافظة على اطوال ثابتة ومسافات متناسقة فان المادة التي يعالجها الشاعر لا بد أن تصبح هي الاخرى ذات مسافات متناسقة وذلك بحكم قانون خفي يربط بين الشكل والمضمون ويجعل الواحد فيهما مؤثرا في الاخر متأثرا به في الوقت نفسه .

وابسط نتائج هذا الالزام في القصيدة العربية القديمة ما نلاحظه من ميل العبارات التي تنتهي بانتهاء الشطر ، واذا امتدت فالى نهاية البيت حيث القافية الموحدة تنتصب شامخة وتبني جدارا متينا يصعب على المعنى ان يتخطاه . ونحن نعلم يقينا انمن شروط البيت الجيد عند العرب ان يكون مستقلا في معناه وصياغته عما بعده . يضاف الى هذا ان الشطر لايسمح للشاعر بان يستعمل عبارة اقصر منه فكانلا بد للشاعران ينهي العبارة معه . وهكذا فرضت الاشطر المتساوية ان تكون العبارات متساوية الى حد ما، اومقسومة الى قسمين متساويين . وفي هذا ما لا يروق للشاعر الحديث الذي يميل الى التعبير فيستعمل عبارة قصيرةذات كلمتين احيانا . وقد يروق له ان تستوعب عبارة واحدة بيتين او ثلاثة . وقد يحب ان يقف في نصف الشطر ويبدأ عبارة جديدة تنتهي في نصف الشطر التالي . وكل هذا يعينه على احداث اثر معين او اثارة حالة نفسية يقصدها . والحقيقة ان هذا هو ما نصنعه في الحياة ايضا . فلو اصغينا الى رجل عامي يقص حكاية لالتفتنا الى ما يحدثه تنويع الاطوال في عباراته من اثر عميق في المستمعين، وهذا ما يحرم منه الشاعر الذي يستعمل طريقة الشطرين والقافية الموحدة .

لقد وجد الشاعر الحديث نفسه محتاجا الى الانطلاق من هذا الفكر الهندسي الصارم الذي يتدخل حتى في طول عبارته ، وليس هذا غريبا في عصر يبحث عن الحرية ويريد ان يحطم القيود ويعيش ملء مجالاته الفكرية والروحية . والواقع ان احدى خصائص الفكر المعاصر انه يكره النسب المتساوية ويضيق بفكرة النموذج ضيقا شديدا ، فما يكاد يقع على اتساق متعاقب منتظم في جهة من جهات حياته حتى يشتاق الى ان يحدث فوضى صغيرة في مكان منه فيربك النموذج ويخرج على الرتابة ، ولهذا امثلة كثيرة في مبانينا وبرامجنا وحياتنا . ولم تكن حركة الشعر الحر الا استجابة لهذا الميل في « العصر » الى الخروج على فكرة النموذج المتسق اتساقا تاما . والواقع ان الحياة نفسها لا تسير على نمط واحد ولا تتقيد بنسبة ثابتة في احداثها وانما تجري بلا قيد ، لا بل ان اللغة ، وهي منبع كل فكر وكل شعر ، لا تتبع نماذج . اننا نتكلم بحسب الحاجة فنطيل عباراتنا ونقصرها وفق المعنى لا وفق نظام هندسي فروض . ولذلك ثار الشاعر المعاصر على اسلوب الشطرين وخرج الى اسلوب التفعيلة وبات يقف حيث يشاء المعنى والتعبير .

واما رابع العوامل الاجتماعية التي دفعت بالشاعر الحديث الى ايثار الاوزان الحرة فهو الاتجاه العام في العصر الى تحكيم المضمون في الشكل ، وهذا مرتبط بما نراه من ميل العصر الى الانشاء والبناء والنهوض ، وهو ميل عام يستوعب مختلف مظاهر حياتنا . ان الشكل والمضمون يعتبران في ابحاث الفلسفة الحديثة وجهين لجوهر واحد لا يمكن فصل جزئيه الا بتهديمه اولا . وان النقد العربي المعاصر لجدير بان يلتفت الى هذه الوحدة الوثيقة وينبه الى ما في هذا الفصل بين وجهيها من خطر على الفكر والامة . غير ان الحركات الاجتماعية والادبيةلا تخضع الى المنطق العقلي وانما يتحكم فيها منطق التطور الاجتماعي . ولقد جاء عصرنا هذا على اثر العصر المظلم الذي غلبت فيه على الشعر العربي القوالب الشكلية والصناعة الفارغة والاشكال التي لا تستجيب لحاجة حيوية . ووجد الشاعر الحديث نفسه خلفا لاجيال من الشعراء يكتبون الالغاز والاحاجي والتشطيرات ولزوم ما لا يلزم وكل ما يدل على انهم لا يريدون ايصال مضمون معين الى قرائهم وانما همهم ان يخلقوا اشكالا مجردة ذات قيمة ظاهرية وحسب. وقد كان رد الفعل المباشر عند الشاعر المعاصر ان يتجه الى العناية بالمضمون ويحاول التخلص من القشور الخارجية . وكانت حركة « الشعر الحر » احد وجوه هذا الميل لانه في جوهره ثورة على تحكيم الشكل في الشعر . ان الشاعر الحديث يرفض ان يقسم عباراته تقسيما يراعي نظام الشطر وانما يريد ان يمنح السطوة المتحكمة للمعاني التي يعبر عنها . ونظام الشطرين كما سبق ان قلنا متسلط يريد ان يضحي الشاعر بالتعبير من اجل شكل معين من الوزن ، والقافية الموحدة مستبدة لانها تفرض على الفكر ان يبدد نفسه في البحث عن عبارات تنسجم مع قافية معينة ينبغي استعمالها . ومن ثم فان الاسلوب القديم عروضي الاتجاه يفضل سلامة الشكل على صدق التعبير وكفاءة الانفعال ، ويتمسك بالقافية الموحدة ولو على حساب الصور والمعاني التي تملأ نفس الشاعر . وكل هذا ايثار للاشكال على المضمونات بينما يريد العصر أن ينشغل بالحياة نفسها وان يبدع منها انماطا تستنفد طاقته الفكرية والشعورية الزاخرة . ان كل ميل الى تحكيم الشكل في المعنى يغيظ الشاعر المعاصر ويتحداه ، وهذا هو السبب فيما نراه من مبالغة بعض الناشئين في استعمال الاوزان الحرة حتى كادوا ينبذون الاوزان القديمة نبذا تاما .

★

هذه العوامل الاربعة تبدو لنا العوامل الرئيسية التي احاطت بحركة الشعر الحر ، ولكنها ليست العوامل كلها. ان من الممكن ان ننظر الى الحركة من زوايا اخرى فنرى فيها مظهرا لضيق الشباب بهالة التقديس التي يحيط بها النقاد العرب ادبنا القديم ، وكأن هذا الادب كمال لا غاية

بعده . ولعل التقديس يعد في نظر الجيل العامل نوعا من الجمود وذلك يتضمن فكرة التحقق والاكتمال والوصول وهي فكرة تجعل العمل والجهد شيئا لا داعي له ولا فائدة فيه . وقد يكون جيلنا متبرما بمضمونات الشعر القديم، وعندما وجد ان اشباح الماضي تعشش في هذه الاوزان قرر ان يتركها فترة ليبني كيانا شعريا في اوزن جديدة ريثما يتاح له الاستقلال الكامل فيعود الى هذا القديم بنظرة اصفى وفهم اعمق .

وانه ليهمنا ان نشير الى ان حركة الشعر الحر ، بصورتها الحقة الصافية ، ليست دعوة لنبذ الابحر الشطرية نبذا تاما ، ولا هي تهدف الى ان تقضي على اوزان الخليل وتحل محلها، وانما كان كل ما ترمي اليه ان تبدع اسلوبا جديدا تو قفه الى جوار الاسلوب القديم وتستعين به على بعض موضوعات العصر المعقدة . ولا اظنه يخفى على المتابعين ان بعض الموضوعات تنتفع بالاوزان القديمة اكثر ما تنتفع بالوزن الحر . ولذلك لا نرى وجها نبرر به ميل بعض الناشئة الى ان يكتبوا كل قصائدهم بالاوزان الحرة . وقد سبق لنا منذ خمس سنين ان تناولنا هذه الظاهرة بالنقد المفصل في بحث مستقل . غير ان التطرف شيء مألوف في تاريخ الدعوات الادبية والاجتماعية ، ونحسب ان كل حركة تبدأ متطرفة اولا ثم ترتد الى الاعتدال بعد ان تشذبها التجارب وتصقلها الحاجة . ثم اننا على يقين من ان كثيرا من المغالين في استعمال الشعر الحر سيرتدون في السنين القادمة الى الاعتدال والاتزان ويعودون الى الاوزان الشطرية فيكتبون بها بعض شعرهم .

اما اليوم فنحن في شيء من القلق على الحركة، تقلقنا هذه المغالاة التي تصاحبها، وتلك الحدة والعصبية التي يكتب بها بعض انصارها المتحمسين الذين حسبوا ان محاربة ادابنا القديمة جزء من اهداف الشعر الحر . وكان من الممكن على الاطلاق ان نبدع نحن شيئا لم يساهم اجدادنا الموهوبون في تمهيد السبيل اليه منذ الف سنة . والواقع ان حركة الشعر الحر لن ترسخ في تاريخنا حتى يدرك الشاعر الحديث ان تراثه القديم قد كان هو المنبع الذي ساقه الى ابداع الجديد.

ولعل انكار القديم والمغالاة فى النفور منه مظهر من مظاهر ضعف الثقة بالنفس عند الامم ، وقد لا يكون غريبا ان يحس الفرد العربي في هذه الفترة من حياته بشيء من هذا . ولكننا على ثقة من انه ، وهو سليل هذا التراث الخصيب ، لا يمكن ان يبقى في هذا المستوى طويلا ، ولا بد ان يسيطر على ابعاد نفسه كلها في المستقبل القريب . واذ ذاك سيبدو له الشعر الحر نقطة صغيرة في تاريخه الكبير، وسيدرك ، اول مرة ، ان اوزانه التي ابتكرها قد بلغت مرحلة النضج وباتت جزءا حيا من تاريخه الادبي العريق .

بغداد — نازك الملائكة

صدر اليوم
عن دار الآداب
بمناسبة اسبوع الجزائر
أجرأ ما كتب الكاتب الفرنسي الشهير
جان بول سارتر
عن الاستعمار والظلم والتعذيب في الجزائر المناضلة
عارنا في الجزائر!
ترجمة عايدة وسهيل إدريس

الكتاب الذي يفضح الاسلوب الاستعماري الفرنسي ويكشف عما تركته الوحشية الفرنسية من فظائع في الجزائر ويحلل نفسية المستعمرين اصدق تحليل